محاضرات في أدب الرحلة العربي الحديث و المعاصر

السداسي : الخامس

أستاذ القياس: رؤوف قماش

المستوى : السنة الثانية ماستر أدب عربي حديث و معاصر

المجموعة : 1 - الأفواج 1+2

طبيعة المقياس : و ت أ 1

المعامل : 03

الأرصدة: 05

المسار سداسي.

العام الدراسي :(2020- 2021)

مقرر المقياس

1- ماهية أدب الرحلة.

2- نشأة أدب الرحلة عند العرب.

3- أنواع الرحلات .

4- أدب الرحلة و موضوعاته عند العرب في العصر الحديث.

5- أدب الرحلة في الجزائر.

6- آليات الكتابة في النص الرحلي.

7- أدب الرحلة و المقاربات النقدية العربية الحديثة و المعاصرة.

8- أهم الرحالة العرب في العصر الحديث.

09- قائمة أولية المصادر و المراجع .

المحاضرة الأولى : ماهية أدب الرحلة

تمهيد :

الرحلة مظهر من مظاهر النشاط الإنساني منذ القديم ؛ إذ توالت رحلات الناس من قطر إلى قطر طلبا للحاجات المختلفة ، فكلما رغب المرء في تحسين أوضاعه و كسر رتابة حياته هام على وجهه في مناكب الأرض يذرع البلاد و يخترق الأفاق ، فيجتاز القفار و المفاوز ، و يلم بالقرى و يؤم المدن العامرة ، حيث يصيب أمنا بعد خوف أو يجنى كسبا بعد فاقة ، أو يحصل علما يزيح عن بصيرته لوثة الجهل و التعصب ، و قد ينجو بدينه يتحاشي بطش الجبارين و طغيانهم فرارا من الفتنة و الضلالة ، و هكذا تظل دوافع الرحلة لدي البشر كثيرة و متنوعة تنوع حياتهم و همومهم و مطالبهم.

و ظلت الرحلة خيارا للإنسان بل حتمية في الكثير من الأحيان ، يحقق من خلالها آماله التي عزت عليه في دياره ، و يفتح من خلالها آفاق حياته ، حتى غدت لدى بعض الشعوب و القبائل نمط حياة ؛ كما هو الشأن مع قبائل الرحل في الصحارى و الفيافي التي يتقلب ساكنوها هنا و هناك بحثا عن الماء و الكلإ و الأمن . و كذا الأمر مع التجار الذين يطلبون السلع من البلاد البعيدة و يوردونها إلى بلادهم كما قد يصدرونها إلى تلك البلاد ، و كذلك أمر الحجاج الذين يؤمون المراكز الدينية المقدسة التي أقرتها مختلف الأديان . و قس على هذا المنوال فيما يتعلق بسائر مطامح النفس التي لا يمكن حصر دوافعها لممارسة السفر و الترحال .

و قد حث القرآن الكريم من جهته على السفر و الترحال و الهجرة متى دعت الحاجة ، فشرع للمؤمنين رحلة الحج مرة في العمر ، كما أباح لهم التطواف في الأرض لطلب المعاش ، و نبههم إلى مشاهدة آثار الغابرين بغرض الاعتبار ، و دعاهم إلى الهجرة لحماية دينهم كما حدث مع الرسل الكرام - عليهم و على رسولنا محمد أفضل الصلاة و التسليم - ، و شواهد القرآن التي عرضت لهذا الأمر كثيرة جمة تضاف إليها شواهد من الحديث النبوي الشريف و أخرى من الشعر العربي في كل عصوره .

1- مقاربة مفهوم أدب الرحلة :

لا يوجد تعريف دقيق متفق عليه لأدب الرحلة ، لأن الرحلة جنس أدبي يتسم بالطرافة متى ما قورن بالأجناس الأدبية الأخرى ، و هو يمتاز بجمعه بين الإفادة و الإمتاع ، لأن قارئ الرحلة لا يطلع على العالم الذي ينقله إليه المسافر صاحب الرحلة فحسب ، بل يتعرف على أفكار و تصورات و رؤى ذلك الذي يحدثه عن موضوع رحلته ، و ينقل إليه مشاهداته من البلاد التي ينتقل إليها ("سعيد بنسعيد العلوي" . أوروبا في مرآة الرحلة) . و تنبعث الإثارة في الرحلة من الوصف الطريف للواقع ،و السرد الفني للمغامرة الإنسانية ، و العواطف المحركة للبشر، التي تنبع من أنواع الشخصيات التي تبرزها ، بحيث تبدو للقارئ متوافقة في كثير من نزعاتها ، و متباينة في جوانب أخرى ("جبورعبد النور". المعجم الأدبي) .

و قد أقر الباحث "شعيب حليفي" من خلال كتابه : (الرحلة في الأدب العربي) بوجود ثلاث صعوبات تحول دون تحديد و صياغة مفهوم دقيق متفق عليه للرحلة هي :

1- غياب تعاريف دقيقة سواء عند الرحالة أو اللغويين العرب.

2- وجود نصوص رحلية كثيرة ثرية و متنوعة بما صعب تحديد مفهوم جامع مانع.

3- انفتاح النص الرحلي على عناصر أخرى متحركة تحضر أو تختفي بدرجات متفاوتة بين النصوص.

و انطلاقا من النقطة الأخيرة تحدث الباحث "عبد الرحيم مودن" عن كون الرحلة جنسا أدبيا مضطهدا باعتباره نصا مساعدا لنص مركزي أو غير مضطهد –بتعبيره- ، و ذلك يجعله قابعا في الظل في أغلب الأحوال . لكن المتفق عليه بين الدارسين أنها ذات طابع سردي عموما تروي قصة سفر يقوم به أحدهم لدافع يحركه ، و يشكل السفر فيها مهيمنا نصيا يخضع العناصر الأخرى لسيطرته و توجيهه. و لتقريب مفهوم أدب الرحلة إلى الأذهان نصفه بأنه ؛ جنس أدبي نثري -غالبا- سردي واقعي أو خيالي بصفة ما ، يرد بأسلوب يسجل و يصف انتقال السارد أو البطل من فضاء لأخر داخلي أو خارجي

و ذلك في الحقيقة أو على مستوى ذهني متخيل في الماضي أو في الحاضر أو المستقبل في عالمنا الدنيوي أو في العوالم الأخرى . إنه يصف رحلة واقعية أو متضمنة لجوانب خيالية على ألا تكون خيالية مطلقا ، و إلا كانت جنسا أدبيا مختلفا كأدب المعراج أو بعض قصص الخيال العلمي . أما معنى داخلية أو خارجية فمرجع ذلك بلد الرحالة.

و قد ورد تعريف لأدب الرحلة لدى "مجدي وهبة" في (معجم مصطلحات الأدب- باللغة الفرنسية) يقول بأنها:((مجموع الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلات في بلاد مختلفة،و قد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات و سلوك و أخلاق، و لتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها ، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة ، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد... و يعتبر أدب الرحلات-إلى جانب قيمته الترفيهية أو الأدبية أحيانا- مصدرا هاما للدراسات التاريخية المقارنة))ص: 577.

و تنتمي الرحلة بوصفها أدبا إلى أدب السفر ، و لكنها تختلف عن بعض أنماطه بكون السفر فيها بنية مهيمنة و متحكمة في باقي البنى ، و من هنا لم تعد الرحلة نصا تابعا بل صارت نصا أدبيا قائما بذاته يتخذ ملامحه الأجناسية من تميزه عن باقي نصوص السفر من مذكرات و مراسلات و تقارير و استطلاعات ، فضلا عن أجناس أدبية أخرى توسلت بالسفر لأهداف عديدة كالشعر و الرواية و السيرة الذاتية و المقامة ...إلخ . و هي أولا و أخيرا ((جنس أدبي يقوم على محكي السفر)) بتعبير الباحث المغربي "عبد الرحيم مودن" . و لهذا كانت أسئلة الرحلة في نظر "شعيب حليفي" أسئلة لا تقف عند أجوبة شافية بقدر ما تفترش أرضية موسعة للأسئلة مقلقة لكنه يراها مشوقة .

2- أسس أدب الرحلة :

يقوم أدب الرحلة على أسس أهمها :

- قصدية الذهاب و الإياب ، و إلا كانت هجرة أو نفيا أو لجوء ، و هناك أدب يتعلق بهذه الأمور...إلخ.

- الكتابة ، وإلا أصبح كل مسافر رحالة .

- هيمنة بنية السفر و ليس حافز السفر لأن الحافز عنصر من عناصر البنية . بينما البنية أشمل لأنها تمنح النص خصائصه النوعية .

- أدب الرحلة جنس حواري من ناحية الشكل ، إذ يتداخل مع الشعر و النثر ، كما نجده يخالط الرواية و المقامة و السيرة الذاتية و أدب الرسائل ... و هو كذلك من الناحية المضمونية أيضا إذ ينفتح على التاريخ و الجغرافيا فقد نشأ في حضنهما ، و هو بالجملة جنس منفتح على كل المعارف بلا استثناء.

- لأدب الرحلة جانب تعليمي ؛ إذ تتشكل نصوصه من مكونين أساسيين خطاب أدبي و مادة علمية قد تتعلق بالجغرافيا أو الطبيعة أو التاريخ أو الطبائع و الأخلاق أو غيرها من الخبرات و المعارف التي يجلبها الرحالة من الأقطار البعيدة ليفيد بها قراءه.

3- أدب الرحلة و التسميات المشابهة :

هناك تسميات أخرى تنافس أدب الرحلة في تسمية الأدب الذي يتناول السفر ، و من أبرزها **الأدب الجغرافي** و المصطلح من وحي المستشرق الروسي الكبير "أغناطيوس كراتشيكوفسكي" (1883 - 1951م) الذي ألف كتابا قيما تحت عنوان: (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) ، و اهتم بتلك المؤلفات الجغرافية العربية القديمة التي كانت فيها كتب يصعب إلحاقها بالكتب الجغرافية العلمية البحتة؛ لأن مؤلفيها أسقطوا ذواتهم على الموصوفات الجغرافية الموضوعية و اعتبروها جزءا منها ، فشخصوا و صوروا انطباعاتهم و انفعالاتهم تجاهها ، و مزجوا حقائقها بكثير من العجائب و الغرائب التي نسجها الخيال الشعبي من حولها . و تفاعلت في تلك المؤلفات المعرفة الجغرافية و المتعة الأدبية، و نجد ضمن الأدب الجغرافي أدب المسالك و الممالك (الجغرافيا السياسية)، و الأدب الكوزموغرافي (جغرافيا العالم) ، و الأدب الأقيانوغرافي (جغرافيا البحار) ، و ما يتعلق بغرائب المخلوقات ...إلخ

و من المصطلحات المقترحة **الأدب السياحي** و قد اقترح في الجزائر من طرف بعض الباحثين كالدكتور "يوسف وغليسي" الذي اعتمده متأثرا بالدكتور "عبد الله الركيبي" في كتابه (في عاصمة الضباب و مدن أخرى سياحة أدبية) ، و الأدب السياحي عند "يوسف وغليسي" ثمرة رحلة تلقائية حرة إلى مكان مرغوب فيه بنية التجوال و التمتع و الاستطلاع و الفضول و الاستكشاف و يرد في شكل جمالي يطبعه الإمتاع الوصفي و التنميق الكلامي و التبليغ الانطباعي الذي يمتاز ببساطة الوظيفة الإخبارية ، و يبتعد عن الإسراف في المعلومات التاريخية و الجغرافية الجافة . أما عربيا فرائد هذا المصطلح هو "جمال بدران" الذي اعتمد المصطلح من خلال كتاب بهذا العنوان .

و استخدم أصحاب (معجم السرديات) "محمد القاضي" و من معه مصطلح **قصص الرحلات** و هو مصطلح منقول عن اللغتين الفرنسية و الإنجليزية Récit de voyage – Journey narrative.

أما **أدب السفر** فهو يحيل إلى مجموع الكتابات التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بفعل السفر، حيث يلعب فيها هذا الأخير دورا رئيسيا موجها فيغدو عنصرا مهيمنا بانيا لا غنى عنه ، إذ لا يقوم النص إلا به ، و قد يلعب دورا ثانويا يمثل حافزا من الحوافز التي تكون الخطاب النصي غالبا . و تستخدم اللغات الأجنبية المصطلح الأخير أدب السفر ، حيث تستخدم اللغة الفرنسية – Littérature de voyage و هو ما تستخدمه اللغة الإنجليزية- Travel literature . و قد تستخدمان مصطلحات أخرى ك**كتابات السفر** في الفرنسية أو **كتب السفر** في الإنجليزية - Travel books - Ecreture du voyage

و هناك مصطلحات أخرى لكنها أقل ذيوعا منها كراسات أو سجلات السفر charnier de voyage .

و الواقع أن أدب السفر أقرب المصطلحات إلى أدب الرحلة في اللغة العربية لكن الدارسين مالوا إلى أدب الرحلة لقدمه و لوضوحه و بعده عن الالتباس الذي قد يعانيه أدب السفر مع آداب السفر الذي يعني أخلاقيات و آداب السفر أو ما كتب حول السفر و الموقف منه ترغيبا أو ترهيبا ، و منه ما أثر عن الإمام "الشافعي" أو غيره من الأشعار و ما يردنا من أمثال و حكم مختلف الأمم كالعرب و الإنجليز و الفرنسيين و الهنود و غيرهم .

ملاحظة : العنصر المهيمن و الحافز مصطلحان نقديان شكلانيان ، ينظر: (نصوص الشكلانيين الروس) لتودوروف – ترجمة : إبراهيم الخطيب ، و غيره .

نهاية المحاضرة

المحاضرة الثانية : نشأة أدب الرحلة عند العرب

(إرهاصات الظهور- التأسيس و الازدهار- تحولات العصر الحديث)

1- إرهاصات الظهور:

نشأ أدب الرحلة عند العرب نشأة طبيعية نتيجة إفرازات الحياة اليومية بمختلف أبعادها ، حيث تطورت تجربة الحل و الارتحال (الظعن) التي كانت المظهر الأساس لحياة القبائل البدوية في العصر الجاهلي ، و هي التي أملتها ظروف البيئة و الطور الاجتماعي الذي كانت فيه تلك الأمة آنذاك . تطورت تلك التجربة الجماعية و رسخت في اللاشعور الجمعي ، و جرى تعزيزها مع الزمن بتنامي الحاجات الجماعية و الفردية للسفر حتى بعد أن نعم جل العرب بالاستقرار مع مجيء الإسلام ، فقد دعت الحاجة للتجارة و الحج و الغزو و الأمن و هي أمور تتطلب الرحلة و السفر ، و قد تركت صداها على ما بلغنا من نصوص شعرية و غيرها . و لا خلاف بين الدارسين حول شدة مراس العرب في السفر و إقدامهم على المغامرة فيه و هم الفرسان الذين لا يشق لهم غبار، و لو قرأنا المعلقات و غيرها لوجدنا حافز السفر أساسيا فيها . لكن الحديث عن أدب رحلات لا يزال مبكرا حتى ذلك الحين . غير أن الحديث عن فعل الرحلة و السفر حديث له شواهده القوية التي لا يرقى إليها الشك .

و عند مجيء الإسلام في القرن السابع الميلادي وجدنا القرآن الكريم يوجه خطابه لأناس عارفين مجربين للسفر لهم تقاليد فيه صورتها سورة (قريش) و أيات كثيرة تدعو المسلمين (العرب كأول متلق) إلى السير في الأرض لأسباب مختلفة و لا يكلف الله نفسا إلى وسعها ، و كان الأمر بوسعهم ؛ فها هو النبي محمد صلى الله عليه و سلم قد زار الشام مرتين –على الأقل- قبل بعثته . ثم عاش الهجرة و الغزوات و هاجر بعض من صحبه إلى الحبشة و أرسل بعضا من المبعوثين إلى ملوك الدول المحيطة . و بعده توسعت الدولة توسعا مطردا و تباعدت أجزاؤها و بخاصة في عهد الأمويين و العباسيين فنمت الحاجة إلى التعرف على أبعاد هذا العالم الذي كاد أن يصير كله إسلاميا .

و تكاد المصادر التي عرضت لنشأة أدب الرحلة عند العرب تجمع على أن القرن الثالث الهجري ق 03هـ التاسع الميلادي 09م هو القرن الذي شهد انطلاقة هذا الفن عند العرب مع انطلاق و استفحال حركة التدوين و النتائج الباهرة التي أفضت إليها ، و كان لعلماء العلوم المستحدثة فضل كبير في الأمر و في طليعتهم اللغويون و علماء الدين الذين ذرعوا شبه الجزيرة و أطرافها طلبا للمادة العلمية من مظانها في القبائل و الأمصار. لذلك تجد أغلب رحالة و جغرافيي النصف الأول من ذلك القرن من اللغويين و أبرزهم اللغوي و المؤرخ "هشام الكلبي" -ت 206هـ و هو رحالة خبير بالجزيرة العربية خلال أواخر القرن الثاني و أوائل القرن الثالث ، و ترك مؤلفات أهمها (كتاب الأقاليم) و (البلدان الكبير) و (البلدان الصغير) و(أنساب البلدان) . و جاء بعده "الأصمعي" اللغوي و الأديب الشهير –

ت216هـ و قد ألف كتابا عن الأنواء و رسالة في صفة الأرض و السماء و النبات . و خاض "الجاحظ"- ت 255هـ في هذا المجال أيضا بحسب ما أورده "المسعودي" . و من رجال هذا القرن المهمين "الرخسي" (أحمد بن محمد الطيب) ت 286هـ الذي ألف (رسالة في البحار و المياه و الجبال)، و له كتاب باسم (المسالك و الممالك) و هو ربما أول من استخدم هذا الاسم بحسب "فؤاد قنديل" ، و قد تحول إلى مصطلح رائج في مجال الجغرافيا السياسية العربية القديمة . و بعد هؤلاء ظهرت كوكبة من الرحالة الجغرافيين المحترفين البارزين كـ"محمد بن موسى" المنجم - ت 259هـ ، و كان رياضيا و مهندسا قديرا كلفه "الواثق" العباسي برحلتين إلى آسيا الصغرى و الثانية مع "سلام الترجمان" إلى منقطع بلاد الترك بالقوقاز . و التاجر "سليمان السيرافي" الذي أبحر مرات و مرات إلى الهند و الصين و دون جانبا من رحلاته سنة 237هـ- 851م .

و أسس جغرافيون رحالة آخرون ما يسمى بعلم البلدان أبرزهم "اليعقوبي" ت 284هـ وله تاريخه الشهير و كتاب "البلدان" و "ابن خردادبه" – ت 300هـ و أبرز ماله (المسالك و الممالك) ، و "ابن الفقيه"- ت 290هـ و "ابن رسته" – ت 300 هـ و له (الأعلاق النفيسة) .

و بحلول القرن الرابع الهجري الموافق للقرن العاشر الميلادي نشط التأليف في الرحلات من قبل الجغرافيين المحترفين على ما ذكره "أغناطيوس كراتشيكوفسكي" في كتابه (تاريخ الأدب الجغرافي العربي) حيث قال : ((أما القرن العاشر فهو العصر الذي بلغ فيه الأدب الجغرافي أوجه و ذلك بظهور المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب بما تميزت به من اهتمامها بوصف المسالك و الممالك ...هذا و قد اكتسب تبسيط المصنفات و تقريبها إلى الجمهور انتشارا واسعا ، و تزايد الاهتمام بالجانب الفني نتيجة للمطالب المتزايدة لجمهرة المثقفين)) ص : 23. و ميزت هذا المجال حينذاك ثورة تلخصت معالمها في :

1- زيادة عدد الرحالين بشكل يفوق الوصف.

2- ظهور خرائط للبلاد الإسلامية للمرة الأولى (ما يعرف بأطلس الإسلام) .

3- ظهور بعض المعاجم التي تضم أسماء الأقطار و الأماكن المختلفة .

4- وصول الرحالة إلى أفاق بعيدة ، و بخاصة الأصقاع البعيدة للعالم الشمالي مثل حوض نهر الفولجا و بلاد الروس و البلغار.

و من أبرز رحالة ذلك العصر"ابن فضلان" الذي أوفده الواثق إلى بلاد البلغار سنة 309هـ ، و "المسعودي" المؤرخ الشهير – ت 346هـ ، و "قدامة ابن جعفر" – ت 337هـ ، و "ابن حوقل" ت 331هـ ...إلخ .

و في القرن الخامس الهجري نجد رحلات "ابن بطلان" عام 404هـ إلى الشام و مصر و أنطاكية كما نجد كتاب "البيروني" (تحقتق ما للهند من مقولة ..) . و شهد هذا القرن دخول رحالة الغرب الإسلامي الميدان ممثلين بـ"أبي عبيد البكري" – ت 487هـ، و له (المسالك و الممالك) و (معجم ما استعجم) .

أما في القرن السادس الهجري فنرى كثرة التأليف على شاكلة القرن الرابع كما تميز هذا القرن بقوة رحالته من حيث أهمية الآثار التي خلفوها و المناهج التي اتبعوها في جمع المادة و تدوين المشاهدات. و يعد "أبو حامد الغرناطي" –ت 565هـ (تحفة الألباب و نخبة الإعجاب) ، و "الشريف الإدريسي" – ت 560هـ (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) من أبرز رحاليه ، حيث عرف الأول بقوة عارضته و عرف الثاني بخارطته للعالم . و في هذا القرن ظهر مصطلح **أدب الرحلة** على يدي "أبي بكر العربي" – ت 543هـ و ذلك حين وضع مصنفه (ترتيب الرحلة) ، و عزى إليه (فؤاد قنديل) فضل وضع أساس أدب الرحلة بالصورة الفنية المؤمولة .

2- التأسيس و الازدهار:

بعد مخاض قرون طويلة و بمساعدة علوم ذات صلة كبيرة بالرحلات ظهر أدب الرحلة بالفعل بعد أن كان موجودا بالقوة في خبرات و كتابات السابقين من الرحالة الجغرافيين و المؤرخين ، لذلك فهو سليل الأدب الجغرافي فما من جغرافي إلا و قارف الرحلة لأنها عينها المبصرة كما قيل . لقد كان أمثال "ابن فضلان" و "أبي حامد الغرناطي" و "أبي بكر العربي" كتابا رحالين جيدين لكن فضل تأسيس أدب الرحلة فيما نراه يعود إلى صاحب الأسلوب الناصع "ابن جبير" الأندلسي – ت 614هـ الذي اكتملت على يديه ملامح أدب الرحلة العربي ، حيث حرص على تدوين مذكراته و مشاهداته يوما بيوم ، و تحاشى ذكر الغرائب و العجائب التي استهوت غيره ممن أوردوها دونما تثبت ، و اعتمد الصدق في الرواية مبدأ ، و لم يغفل عن تسجيل انعكاس الأحداث على صفحات روحه. و قد عد "كراتشيكوفسكي" رحلة "ابن جبير" أكثر الآثار قيمة دون منازع في باب وصف الرحلات أو الرحلة . و أيا كان الأمر بين من يرجع التأسيس إلى "ابن فضلان" أو "أبي بكر العربي" أو "ابن جبير" فالثابت أن الفضل يعود إلى كل هؤلاء و غيرهم ممن ذكرنا أو لم نذكر كل بما أسلفت يداه و لا يذهب العرف بين الله و الناس كما قال شاعرنا القديم .

لا يهم متى تأسس أدب الرحلة بالضبط ، لكن المهم أن تأسيسه كان نتاج تفاعل الكثير من الميادين والتجارب التي دارت حول الرحلة ، و في مقدمتها الجغرافيا و التاريخ . و ليس من اليسير فك الارتباط بينه و بين الأدب الجغرافي ، غير أن الأمر الذي لا يختلف فيه هو أنه نتاج مسار طبيعي سلكته الثقافة العربية من الخبرة الفعلية بالرحلة إلى ترجمة تلك الخبرة الفعلية إلى منجز أدبي راق شهد له البعيد قبل القريب . و المهم هو أن القرنين الرابع و السادس الهجريين كانا حاسمين في مسار

التأسيس الطويل . و يعد "ابن جبير" قمة ما أبدعه العرب في هذا الجنس الأدبي ، إذ قال عنه بعض الكتاب : ((و قد رفع هذا الضرب من الصياغة الأدبية إلى درجة عالية)).

و تفاوتت المؤلفات بين الموسوعات الجغرافية التي لم تخل من لمحات رحلية كـ(معجم البلدان) لـ"ياقوت الحموي" – ت 626هت و الرحلات الأدبية الممتعة ككتاب(الاعتبار) للأمير أسامة ابن منقذ- ت 584هـ و(الإفادة و الاعتبار ...)لـ"عبد اللطيف البغدادي" –ت 614هـ ، و رحلة "العبدري"-ت 700هـ ذات الأسلوب الصناعي القوي . و يضاف إلى هؤلاء أمثال الونشريسي .

و يجدر بنا ذكر رحالتين مهمين بعد هؤلاء في القرون اللاحقة أحدهما هو أشهر رحالة عربي على الإطلاق "ابن بطوطة أبو عبد الله اللواتي الطنجي" – ت 778هـ صاحب الرحلة الأكثر إثارة الموسومة بـ (تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار) ، و قد جاب الآفاق في ثلاث رحلات أخذت منه زهرة شبابه و عمره أشهرها رحلته إلى الحج . أما الثاني فهو "ابن خلدون" – ت 808هـ الذي تعد رحلته آخر رحلة مهمة قديما ووردت ضمن كتابه في السيرة الذاتية (التعريف بابن خلدون و رحلته شرقا و غربا). عدا ذلك و إن ظلت هناك نصوص فهي دون ما ذكر حيث شهدت القرون الأربعة اللاحقة(بين التاسع و الثاني عشر) رتابة و ركودا في ظل الخلافة العثمانية التي لم تشهد الثقافة العربية أيامها ما يبهج الخاطر ، مع ذلك ظل أهل المغرب يؤلفون في الرحلات الحجية و السفارية و كانت هناك نصوص و أسماء كالمقري و العياشي و الورثلاني و المكناسي ...إلخ .

3- تحولات العصر الحديث (ازدهار من جديد) :

بعد ركود دام عدة قرون بسبب تفاقم المشاكل السياسية و الاقتصادية و غياب الأمن و ما ألم بالعالم العربي من تراجع حضاري رهيب تجلى في ضياع الأندلس التي كانت منطلقا أو هدفا للكثير من الهجرات ،و تراجع دور العنصر العربي سياسيا ، و صعود حضارة الغرب ، و ظهور الاكتشافات الجغرافية من طرفه ، و تطور وسائل النقل و تحسن ظروف السفر عاد الرحالة العرب إلى الظهور مع مطلع القرن الثالث عشر الهجري 13 هـ التاسع عشر الميلادي . لكن الوجهة تغيرت و الوظيفة الحضارية للرحلة كذلك و مستوى الكتابة و طبيعتها أيضا ، و قد صارت أوروبا ممثلة في فرنسا و بريطانيا قبلة الرحالة و هدف الازديار ، مع ذلك يمكن الحديث عن ازدهار لهذا الفن في العصر الحديث لتعدد الوجهات و انفتاحها شرقا و غربا و كثرة النصوص و تنوعها و عودة المشرق العربي إلى النشاط في هذا المجال منافسا المغرب العربي بعد النهضة - المزعومة - و تباين المنطلقات و الأساليب ، إذ هناك استفادة من التراث العربي القديم و التجارب الغربية في هذا المجال .

و من أبرز رحالة هذا العصر "محمد عمر السنوسي" صاحب كتاب (تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب و السودان)- 1803م ، و "رفاعة الطهطاوي" من خلال كتابه الشهير (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) -1834م ، و هو كتاب بالغ الأهمية في مسار الأدب و الثقافة العربية ككل في العصر الحديث ، و سليمان بن صيام الذي رحل إلى فرنسا سنة 1852م . و "أحمد فارس الشدياق" صاحب

(الواسطة في أحوال مالطة)1834م ، و "أمين الريحاني" صاحب الرحلات المعدودة إلى البلاد العربية في الجزيرة و لبنان و المغرب الأقصى ، و "خير الدين باشا" التونسي صاحب (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) 1867م . و قد مثل هؤلاء- باستثناء السنوسي- لحظة الانبهار الكبير بالغرب في القرن التاسع عشر هذه اللحظة التي غيرت مسار الأدب و الثقافة و الحياة العربية ككل نحو الإذعان للغرب إذعانا طوعيا ، و تفاوتت أساليب الكتابة بين هؤلاء الكتاب بيد أنها لم تتجاوز الكثير من آفات الصنعة إلا أنها أخذت في مسار التخلص منها ، فوضعت اللبنات الأولى لتجديد الأسلوب العربي على أية حال .

و في مطلع القرن العشرين نشطت الرحلات ذات الطابع السياسي كرحلات "محمد فريد بك" في الأندلس و الجزائر و مراكش (من مصر إلى مصر) 1902م ، و رحلات أرباب الحركات الإصلاحية و هي كثيرة ، و ظلت الرحلات الحجية بارزة في سائر الأقطار كرحلة المازني (رحلة إلى الحجاز) و رحلة شكيب أرسلان كذلك (الارتسامات اللطاف...) ، و قصد البعض ديارا قصية "كمحمد عياد الطنطاوي" (تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا) و السوداني عبد الله عبيد (سوداني في الصين الشعبية) ، و محمد بن ناصر العبودي (رحلة إلى جزر المالديف) و هناك من زار اليابان أو أمريكا اللاتينية ...إلخ و ظهر رحالة مغامرون و آخرون مكثرون كـ"محمد بن ناصر العبودي" و "أنيس منصور" (حول العالم في 200يوم) ، و ظهرت النساء في المجال كـ"نوال السعداوي" و" أمينة سعيد" و "غادة السمان" ...إلخ . و لا تزال الكتابات تتهاطل و الأساليب تتنوع بما يصعب حصره .

نهاية المحاضرة

المحاضرة الثالثة : أنواع الرحلات الأدبية

تميزت النصوص الرحلية العربية الحديثة بما تميزت به النصوص القديمة لهذا الجنس الأدبي الحيوي جدا الذي استطاع أن ينقل نبض الحياة العربية و العالمية، و أن يمثل ثقافة العصر الذي يعبره و يتلقى صدى زخمه و ألوان و أشكال نشاطات حياة من يسعون فيه من الناس . و يعد هذا الضرب من النصوص مرآة لحياة الشعوب التي ينقلها كما يمثل مرصدا للتوجهات السياسية و الثقافية و الاجتماعية للبلد الذي يكتب فيه ، و برغم التشابه فيما أظهره النص القديم و الحديث من حيوية التمثيل و التمثل و القدرة على التصوير فإن التمايز قائم بينهما على مستوى الرؤية و المرجعيات و سياقات الإنتاج و التلقي و القراءات ؛ لأن رحلة عصر الطائرات و العوادم النفاثة ، و أجهزة البرق اللاسلكي غير رحلة الدواب من إبل و أحصنة و بغال ، و قد انقلبت حال العرب من غالب إلى مغلوب و من طالب إلى مطلوب ، ومن هنا تغيرت الحاجات و المواقع سيرا على إيقاع الزمن ، لكن الحاجات العامة لا تتغير تغيرا جوهريا ، و بالتالي فإن أي تصنيف لأنواع الرحلات ينبغي أن يراعي طبيعة ما تعكسه تلك الرحلات من شؤون الحياة ، و ما استجد فيها قياسا إلى العصور الفارطة .

و قد ظل النص الرحلي العربي معرضا لطيفا للانفتاح و التنوع انطلاقا من الجانب الموضوعاتي الذي كان نتاج اختلاف التجارب و المرجعيات و تمثلاتها الذهنية و التخييلية على مستويي الانتاج و التلقي و الرؤية و الإسناد . و من هذا المنطلق تم تقسيم الرحلات إلى نوعين باعتبار الحقيقة و الخيال كأرضية أولية لضبط أنواع هذا الجنس الأدبي السردي المرن ، و يخضع تحديد نوع الرحلة إلى عدة اعتبارات بعد ذلك ، تتحكم فيها ضوابط شكلية عامة كتمييز الشعري عن النثري أو شكلية خاصة مرتبطة بمنظور الثقافة النقدية التي تحكم إشكالات التجنيس التي لا تكاد تنتهي ؛ فقد تكون الرحلة في قالب رسالة موجهة إلى مخاطب محدد أو في قالب تقريري أو قالب قصصي ...إلخ . و يمكن أن يكون الفيصل طريقة الكتابة من حيث العادات الأسلوبية الشكلية كالميل إلى الأسلوب المرسل أو الصناعي . و قد تحسم نوعها ضوابط تتعلق بالبنية النصية و هيكليتها العامة .

كذلك هناك طبيعة المسار و الطريق المتبعة ووسائل السفر و فضاء الارتحال ؛ إذ هناك رحلات داخلية و خارجية ، و هذه الأخيرة أكثر و أهم من الرحلات الداخلية ، و هذه الأخيرة صنفان : رحلات داخل القطر الواحد : كرحلات الجزائريين و المغاربة و المصريين كل داخل بلده ، و نذكر منها على

سبيل المثال : رحلة "أبي القاسم سعد الله" إلى خنقة سيدي ناجي ، أو رحلة "عمر بن قينة" إلى مسقط رأسه بوسعادة ، أو رحلات الرحالة المغربي "عبد الله بن العباس الجراري" في مدن بلاده المغرب الأقصى ...إلخ . و هناك رحلات داخل العالم العربي ، و هي كثيرة قديما و حديثا و مثال ذلك رحلات "محمد فريد بك" في إلى الجزائر و مراكش 1901م، و رحلات "محمد الخضر حسين" إلى الجزائر و غيرها، و كذا رحلات "أحمد توفيق المدني" إلى البلاد العربية ...إلخ .

و يلعب مضمون النص دورا أساسيا في تحديد نوع الرحلة ، و عادة ما يبرز حافزها (الغرض ، الهدف ، الدافع) الذي يبقى من أهم ضوابط التحديد ، و قد مال إليه أغلب الدارسين ، فصنفوا الرحلات باعتبار دوافعها ، و أشهر التقسيمات التي تعتمد هذا الضابط تقسيم "محمد الفاسي" الذي جعل الأنواع خمسة عشر نوعا ، و كثفها "ناصر عبد الرزاق الموافي" في أربعة أنواع في كتابه (الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري) هي : 1- الرحلات الرسمية . 2- الرحلات التجارية و العجائبية. 3 – الرحلات العلمية .4– الرحلات الدينية . و يناسب هذا التقسيم مدونته القديمة لأننا لاحظنا غياب نوع مهم هو الرحلات الاستكشافية السياحية ، و نقترح أن نجعله خامسا ضمن القائمة، و لن نكتفي باعتماد هذا التقسيم بل سنعدله قليلا بما يناسب الرحلات الحديثة و المعاصرة .

1- الرحلات الرسمية :

و هي تلك الرحلات التي يكتبها أصحابها تلخيصا لأطوار تجربة سفر رسمية كالقيلم بسفارة أو مرافقة الجيش أو عضوية بعثة ، أو القيام بنشاط في إطار منظم بصفة إدارية معترف بقانونيتها و هناك من يسمي هذه الرحلات بالرحلات التكليفية ، و تضاف إليها الرحلات الوظائفية المهنية . و تندرج صمن هذا السياق رحلة الطهطاوي (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) 1834م ، و (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك) لخير الدين باشا التونسي 1867م ، و (الواسطة في معرفة أحوال مالطة) لأحمد فارس الشدياق 1834م ، و رحلة ابن الدين الأغواطي بتكليف من القنصل الأمريكي بالجزائر في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي .

2- الرحلات التجارية و النفعية :

و تكتب نتاج رحلات لممارسة التجارة ، و قد كان هذا النوع كثير الانتشار قديما لكن تجار هذا العصر لم يعودوا قادرين على الكتابة و الإبداع إلا قليلا ، و بالتالي حصل تراجع في هذا الضرب من الرحلات لكن الأمر لا يخلو ، فقد نجد من يسافر لأغراض مادية أو غير مادية و إنما يطلب غاية ما كطلب العلاج ، و هناك من الكتاب من يذهب إلى بعض البلاد لغرض صقل تجربته و خبرته بالناس و الحياة ، و يضاف إلى هذا صنف من الكتابات (الدليل السياحي) يقدم فيه الكاتب إرشادات دقيقة للمسافرين بأسلوب شيق و أنيق يمتاز بالجاذبية . و مثال هذه الرحلات (أبو الهول يطير) لـ"محمود تيمور " الذي ذهب إلى أمريكا طلبا لعلاج زوجته هناك .

3- الرحلات العلمية :

و هي رحلات معلومة الغرض حيث يمضي الناس لطلب العلم و الاستزادة منه في البلاد البعيدة ، و قد كثرت رحلات الباحثين في العقود الأخيرة لغرض البحث و المشاركة في الندوات العلمية ، و رصد الكتب و مظانها ، و من هذه الرحلات و هي كثيرة و متنوعة : رحلات "أبي القاسم سعد الله" إلى المغرب و السعودية (ينظر كتابه : تجارب في الأدب و الرحلة) و رحلات العلامة "حمد الجاسر" لجمع المادة العلمية لكتاباته حول تراث شبه الجزيرة العربية (رحلات حمد الجاسر) ...إلخ

4- الرحلات الدينية :

و تشمل الرحلات الحجازية و الرحلات الفهرسية التي تتناول لقاء علماء الدين و معاشر الشيوخ ، و منها : رحلة الأمير "شكيب أرسلان" (الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف) ، و رحلة "البتنوني" (الرحلة الحجازية) و تصف رحلة الخديوي "عباس حلمي الثاني" سنة 1910 م إلى الحج ، و رحلة "إبراهيم عبد القادر المازني" (رحلة إلى الحجاز) ...إلخ ، و هذه رحلات حجية . أما الفهرسية فهي قليلة و منها (الرحلة العلية إلى منطقة توات) لمـ"حمد باي بلعالم" .

5- الرحلات السياحية :

و هي كثيرة جدا،إذ يقوم الأدباء بزيارة بعض البلاد فيلخصون وقائع الزيارة و أثرها على نفوسهم ، و ينقلون إلى القراء التجربة بكل حرارة و صدق أو مبالغة أو بحسب ما كان لديهم من انطباعات و ارتسامات. و من أمثلة هذه الرحلات : رحلة محمود تيمور إلى السويد (شمس و ليل) ، و رحلة جمال الغيطاني (أسفار المشتاق) ، و كتاب أنيس منصور (حول العالم في 200 يوم) ، و كتاب محمد المخزنجي (جنوبا و شرقا رحلات و رؤى)،و رحلة (جزائري في الأندلس) لـ"سفيان مقنين " ، و رحلات "غادة السمان" و هي سبع (أمراة قوس قزح ، شهوة الأجنحة ، الجسد حقيبة سفر ...) .

و يبق تحديد نوع الرحلة وجهة نظر لا أكثر . لأن الأطراف التي لها ضلع في المسألة كثيرة و لأن النص يمكن تمليه من الداخل و الخارج ، و هو في النهاية رسالة للمتلقي و لأدواته النقدية قدرة كبيرة على إعطائه أبعادا جديدة ، ما تصورها منتجه ، فالمرء يملك الكلمة ما سكت عنها .أما إذا نطقها فهي تملكه – و النص كلمات - ، فقد قال " أحمد شوقي" ((**ملكت نفسي لو ملكت منطقي**)) .

نهاية المحاضرة